ابتلاء العقل البشرى

البشر هم آدم وذريته ، ولكن يوجد لآدم – عليه سلام الله – وضع خاص بين البشر ، إذ أنه الأب ، وله فوق ذلك خصوصيات وشرف يعرف شيئا منها كل من لديه حد أدنى من الثقافة ، ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ الآيتان 11 و 12 – سورة المؤمنون. والإنسان هو ابن آدم – ذكرا كان أو أنثى – الذى نتج متأخرا فى سلسلة الخلق التى يشير إليها النص القرآنى السابق ، ولذلك فقد لا ينطبق وصف الإنسان (العادى) على آدم عليه السلام.

ومن يتأمل النصوص يجد أن خَلق آدم جاء فى بداية السلسلة بكيفية أعلى شرفا من كيفية خلق الإنسان المعتاد ، ويذكر ابن كثير – فى البداية والنهاية – أربع تشريفات خاصة بآدم : إذ خلقه الله بيده الكريمة ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وعلمه أسماء الأشياء. ولم ينل الإنسان – الذى خُلق ﴿**مِن سُلالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ**﴾ الآية 8 ، سورة السجدة ، و ﴿**فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ**﴾ – هذا النوع من التشريف.

وقد كان هناك نوع من الخطاب خاص بآدم ، ويكفى آدم شرف التعامل (الاتصال) شبه المباشر مع الله – تبارك وتعالى علوا كبيرا – لذلك فلا ينطبق على آدم مفهوم الإيمان – بالصيغة المعروضة على ذريته من بعده – رغم أبوته لكل المؤمنين ؛ وذلك لأن الإيمان يكون بكل أخبار الغيب ، لكن آدم كان عبدا فائق العلم بالنسبة للبشر – بتعليم الله له مباشرة – وكان مشاهدا للملائكة وللجنة ، ويحس بالتعامل الأشد وضوحا مع الله – تبارك وتعالى – ولأن الكفر لم يكن واردا ولا متصوراً فى تلك الحالة ، وبالتالى فطبيعة الإيمان عنده كانت تختلف.

الابتلاء

قبل خلق البشر ، خلق الله عدو البشر من الجن ؛ ليقوم بالدور المقدر فى ابتلاء البشر ﴿ **وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ – الآية 27 – سورة الحجر. وفى البداية كان ابتلاء جدنا آدم – عليه السلام – من نوع خاص ، وكانت تجربته فريدة ، رغم ما فيها من عبر للعقل الإنسانى وما ترتب عليها من نتائج تعيشها البشرية إلى قيام الساعة. وتشترك الإنسانية – بدرجات متفاوته – مع جدها فى النسيان و فى محدودية العزيمة ، ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً** ﴾ الآية 115 – سورة طه. وفى ذلك إشارة إلى أهمية الذاكرة ، وما لا يجوز نسيانه ، ونفصل ذلك فى فصول تالية.

وبالمناسبة نشير إلى أن كلا من النسيان والعزم صفات ترتبط بالعقل ، الأولى توجب الحذر من تأثير النسيان على سلامة العقل ، والثانية تنبه إلى ضرورة شحذ الهمم لتحقيق الغاية. وأيضا تشترك كل البشرية مع جدها فى الابتلاء الذى هو اختبار للعقل أساسا ، ومن يبتلى فى عقله يخرج من الابتلاء العام. وبالنسبة لآدم – عليه السلام – فقد ابتلى فى الجنة حين نُهى عن الأكل من الشجرة وابتُلى بإبليس ، ولكن تفضل الله عليه ﴿ **فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ** ﴾ الآية 37 – سورة البقرة.

ومنذ هبوط أبينا آدم – عليه السلام – إلى الأرض والبشرية فى حالة ابتلاء إلى أن تقوم الساعة ، هذا ما قدره العزيز الحكيم ، ولا معقب لحكمه ، ولا مدرك لحكمته – جل شأنه – ﴿ **الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾ الآية 2 – سورة الملك. وقد روى الإمام أحمد فى مسنده ، والحاكم فى مستدركه ، والترمذى ، وابن ماجة فى السنن ، عن أنس – رضى الله عنه – قول الصادق الأمين ، صلى الله عليه وسلم : " *كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون*" ، هذا قدر الإنسان منذ بداية عهده بالدنيا ، حالة الابتلاء والقابلية للخطأ ، خطأ من جانب الفرد أو الأفراد (الجماعة). وما لم يتم تصويب الخطأ ، أو العدول والاعتذار عنه ، أو التوبة منه فسيظل الإنسان فى خطر وغفلة لا يدرك عاقبتها ولا ينجو من شرورها ؛ لأنه لو أدرك العاقبة أو ثمن التمادى فى الخطأ لقرر تصحيح الخطأ فورا ، بدلا من

الاسترخاء فى الغفلة. وتلك هى القضية التى تواجه العقل ، كيف يعبر هذه الدنيا ناجيا بأقل قدر من الأخطاء؟!

والابتلاء – باعتباره من قدر الله – هو فى الأصل خير ؛ لأن الله خير ولا يُقدِّر إلا الخير لمن يعقل ، ومن يتأمل الآية المذكورة آنفا يستشعر روعة التعبير القرآنى فى التبشير بخيرية الابتلاء ، ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ وفى ذلك دعوة لحُسن العمل وتبشير ضمنى بحُسن الجزاء ، وفى نفس الآية ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ ما يشير إلى المغفرة بدون ذكر السيئات ، وذلك غاية فى تلطيف وقع الإبتلاء فى النفوس. وفى الحديث الشريف ، ما رواه البخارى وغيره ، عن سعد ، رضى الله عنه : " *أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ،.....* " ، والحبيب لا يخص أحبابه إلا بالخير ، **وبشر الصابرين**. وهنا يجب تمييز إبتلاء الصالحين عن عقاب المجرمين فى الدنيا.

ومن ناحية الابتلاء ، تجد لكل إنسان حالة ابتلاء فريدة لا تتكرر أبدا ، فقد يُبتلى شخصان بالفقر – مثلا أو المرض – لكن المدقق يلحظ أن الحالتين مختلفتان كثيرا ، لذلك يجب الحذر من التعميم ، وعلينا أن نفهم لماذا خلق الله لكل فرد عقلا خاصا ، يتحرك معه ، ويتعامل به مع الابتلاءات التى تتطور كل لحظة – إما درجة أو نوعا – مما يجعل من المتعذر وضع قاعدة جامدة للتعامل ،

وفى ذلك تلميح لمن قد يوصفون بالجمود ، فكل حالة يلزمها المعالجة التى تناسبها فى حدود المباح.

تباين الأخطاء

تتباين أخطاء التعامل – مع أمور الحياة – فى أحجامها وفى كثافتها ، فتقل الأخطاء فى الأمور المادية والمحسوسة والتى أتقنها شدة الحرص عليها ، ووضحت بسبب وفرة مقاييسها وكثرة تكرار ممارستها ، وأصبح للإتقان (الجودة المادية) علوم متنوعة وتطبيقات شائعة ، وأصبح للضبط وتفادى الخطأ المادى أساليب متطورة حققت إنجازات مادية مشهودة ومطلوبة. فقد أصبح التعامل مع أدق كسور الثانية والمليمتر ومثقال الذرة أمرا ميسورا ؛ نظرا لتوفر وسائل التحديد والقياس. فى مثل هذه المسائل المادية يقل مقدار واحتمالات الخطأ يوما بعد يوم ، ولكنه وارد وندركه بقدر ما ندقق ، لذلك يقل الخلاف حول مقاييسه عن الاختلاف عليه – نقصد الجانب المادى.

وفى المقابل تزيد الأخطاء واحتمالاتها بشدة فى المجالات غير المحسوسة والمناطق الفكرية غير المطروقة ، والتى فشل المفكرون فى تحديد مقاييس لها ، وأهملها عامة الناس : كمعنى العبارة ، وقيمة الفكرة ، ووزن الهدف ، وقيم الحياة ، ومدى سُمو المبادىء ... إلخ ، فكلها يتعذر الاتفاق على مقاييسها . فما تراه ساميا قد يراه غيرك حقيرا – ببساطة وأحيانا بسخرية! وما يراه غيرك هاما قد

يبدو لك تافها وهكذا.. ، فهو يزن بعقلة وفكره ، وأنت تـزن بعقلـك وفكـرك وشتان بين عقلك وعقله ؛ فالمسألة معنوية.

وبالطبع يتعذر التحديد أو القياس أو الضبط بدون مقياس أو دليل قياسـى متفـق عليه وهذا هو جوهر قضايا الخلافات الفكرية ؛ فلو اتفقنـا علـى وسـيلة القيـاس لسهل تحديد المقـادير – القيـم – وبالتـالى يمكـن التفـاهم بشـىء مـن الوضـوح. وحين يتعذر القياس نتحول إلى الترتيب ، وحين يتعذر الاتفاق علـى ترتيـب مـا فنأمل فى الاتفاق على مناقشة أسباب تباين الترتيبات ، بموضوعية وتجرد.

والحالة الأخيرة هى قضيتنا التى تتعلق بمحاولة البدء بضبط وسيلة الحكم ، وهى العقل. وهذا – العقل – هو سبب المجادلات والمنازعت التى يُعانى من نتائجهـا وتداعياتها الأفراد والجماعات والشعوب. فحين يتوفـر الدليـل القيـاسى يسـهل الاتفاق على المقادير والقيم ووزن الأمور والتعـامل معهـا بالحسـنى ، وهـذا مـا يفتقده عالم اليوم. عالَم مـادى ، أو عـالَم يركـز علـى دور المـادة ويهمـل دور الروح والقيم والأخلاق ، وحتى حين يحاول معالجة الأمور الروحية فإنه يعالجها بفكر مادى فيضل. وللأسف فإنه يأبى الاعتراف بالخطأ ويظـل يـناطح الصخـر ويطحن الهواء. وملخص الأزمة أن الإنسان يحتاج لعلاج نفسه بتقويـم عقلـه ، قبل احتياجه لعلاج جسده أو إصـلاح الكـون مـن حولـه! ولكـن العقـل يـأبى الاعتراف بعدم سلامة رؤيته ، إلا من عصم ربى.

إن مستوى الجنون الذى وصلت إليه المدنية الحديثة ليُـذهب عقـل اللبيـب – إن وجد – فى خضم الأمواج المادية الطاغية. لقد أصبح "الروبوت" مفضـلا علـى كثير من البشر ؛ لأن الإنسان الذى فرط فى عقله وأمانته وقيمـه وأحاسيسـه لا يبقى منه إلا شيطان خطر ، والجماد المحايد (الروبوت) أأمن وأسلم وأقوى منه ، ولذلك يفضله أصحاب الأعمال حرصا علـى سـلامة أعمـالهم ، وتجنبـا لشـرور البشر التى اكتسحت خيريتهم.

ومن يحلل ويقارن يجد أن التطور المادى الآلى يحدث بمعدلات أعلى من معدلات تطور الجوانب المعنوية ، لذلك طغـت ثقافـة المبنـى علـى ثقافـة المعنـى ، فـاختل توازن إنسان العصر الحديث. وتقدمت المعارف المادية وجرفت معهـا المعـارف الإنسانية التى أصبحت كتابع يخدم فى غير بيئته ، وأصبـح السـيد هـو المسـود. لكن الأصل فى سنن الحياة الراقية أن المادة مسخرة لخدمة فكر وإرادة الإنسـان. وغياب هذا الأصل الفكرى جرف الإنسان بكُليته (عقلا وجسدا) فى الدوامات المادية التى صنعها بعقله ويديه ناسيا نفسه.

والدوامة بطبيعتها لا تنشأ ولا تقوى إلا عندما تضيع الغاية ، فتتصارع الجزئيات تُطارد وتُزاحم بعضها وهى مسحوبة لأسفل فى أنكى حماقة. وفيما يلى نشـير إلى بعض أسباب أخطاء العقل وضيق الفكر.

الخطأ والنسيان

كما ذكرنا من قبل ، القابلية للخطأ صفة بشرية ، وهـذه القابليـة تـزداد بسـبب الجهل والنسيان وتتقلص بنور العلم وبالتذكرة. وهذه قضايا عقلية ، والعقل هو أمضى سلاح – ضد الشيطان –أنعم الله به على الإنسان لمقاومة الخطأ. وسبق أن أشرنا لمسألة "النسيان" ضمن الحديث عن آبينا آدم عليه السلام ، ونبه القرآن الكريم إلى خطورتها أكثر من 40 مرة ضمن مشتقات "ن س ى " ، وأشار إلى نقيضها (التذكر) ما يقرب من 260 مرة ضمن مشتقات " ذ ك ر " ، وبذلك يكون المجموع حوالى 300 مرة يدعو للتذكر أو يشير إلى خطورة النسيان. ويوضح الذكر الحكيم فى الآيتين 13 و 14 من سورة المائدة ، أن أخطر أخطاء بنى إسرائيل ، والنصارى من بعدهم ، أنهم ﴿... **نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ** ...﴾ ، أى نسوا ما لا يجوز نسيانه.

وفى الحقيقة فالنسيان أيضا صفة بشرية (خِلقية) – لحكمة إلهية – وفى الظاهر بسبب محدودية سعة ذاكرة العقل. ونسيان الشىء – أو الجهل بحقيقته – من أبرز أسباب سوء تعاملنا معه ، مما يعرضنا إما لمضارة وإما لخسران فوائده ، فمن "يسرح" وينسى أنه يسير فى الشارع – مثلا – يتعرض لمخاطره أو قد يخسر فرصة انتفاع كانت متاحة أمامه لو إنتبه. ومن ينسى أن وراءه اختبار يتعرض للرسوب أو لخسران فرصة نجاح متميز قد تكون سببا فى خير .... وهكذا نتدرج فى عرض القضايا والأسباب حتى نقتبس مما قال ربنا : ﴿ **نَسُواْ اللَّهَ**

﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية 19- سورة التوبة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فنسيان الشيء – أو الجهل بحقيقته – يعنى التعامل معه بلا فهم ، وبعقل مظلم ، وما أشبه ذلك بتعامل النائم مع الوحوش والهوام من حوله.

وما دام النسيان حتما فليكن من نصيب الأمور الهينة والبسيطة ، ولنحذره فى الأمور البالغة الأهمية والهامة. وأخطر القضايا على الإطلاق هى التى تتعلق بمصير الإنسان عند مغادرته هذه الدنيا ، فقضية المصير يجب أن تكون الشاغل الأول للعاقل ، فلا يسمح للنسيان أن يطويها أو للأشياء العابرة – وما أكثرها – أن تشوش عليها. على العاقل أن يحدد أساسيات دوره فى الحياة ويجتهد فى تأديتها بأرقى الأساليب وعلى أحسن وجه ممكن ؛ ليودع هذه الدنيا مغمورا بفرح الفوز بما قدم لعالم الخلود الأبدى. فالعقل السليم يربط السبب بالنتيجة ، والوسيلة بالغاية ، **ولا يظلم ربك أحدا**. لقد أنعم الله علينا بالعقل فهل نقيمة أم نضيعه!

الحياة الصناعية

لقد أصبحت الغالبية من البشر يتبعون الأهواء ، ويرفضون الضوابط ويتحايلون عليها ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور فى مثل هذا المناخ ، حيث الخلل الفكرى ، خلل لا يمكن تعويضه أو ترقيعه بالمادة. لكنه الغرور وخمر الغفلة ، ونشوة الزهو بما تحقق من إنجازات صناعية واصطناعية حولت الحياة الرقيقة الهادئة إلى

صخب وضجيج. .لقد تحولت النسمة الرقيقة إلى أدخنة وأتربة ، وتحولت رائحة ورِقة الزهرة إلى طعم البلاستيك وصلادة "الخرسانة". تحول دفء العواطف ورِقة الأحاسيس إلى حسابات المصالح وصرامة الأرقام ، فضلا عن النفاق والخداع السياسى، فأى حياة تلك يا أيها الإنسان البائس! أين روح التعاون وتضامن الجماعة والقيم السامية؟ إلى أين المسير!

لقد تحولت البساطة إلى تعقيد ، وحل الجمال الصناعى المتكلف الصارخ محل الجمال الطبيعى الهادىء. استبدلت الأحجار بالأشجار ، وحل الضِيق محل السِعة ، واختلطت مكونات باطن الأرض بسطحها وهوائها ، ثم يشتكون من التلوث الذى صنعوه! إن المتأمل ليرى أصل المشكلة كامنا فى العقول وهى لا تدرى ، وإلا فما معنى ضيق الشوارع فى المدن الصحراوية؟! هذه الحقيقة المرة موجودة وبكثرة ، والعجيب أنها مألوفة! وما معنى وجود عمارة من عشرة طوابق أو أكثر على أطراف الصحراء أو حتى فى قلب المدن التى أرهقها التكدس والزحام ، ليُحَمِّل الإنسان نفسه بهموم وتكاليف المصاعد والمضخات وسلالم الهروب والخزانات العلوية ، فضلا عن الاحتكاكات المستمرة بين سكان العلب المحملة فوق بعضها لتمثل عمارة الحضارة الحديثة!! ولا تجد مكانا لوقوف سيارة ، ثم تتفتق العقول المعوجة عن أفكار إنشاء جراجات عديدة الطوابق كتقليد أعمى للعمارات عديدة الطوابق ، أو عمل مصاعد للسيارات لتبيت فوق رءوس أصحابها ، والعقل قد ألف كل ذلك ويتعجب ممن ينكره! تجد الغالبية العظمى من البشر مبهورين – فيما يشبه البلاهة – بالبروج المشيدة ،

ويذهبون فى الزهو لدرجة تسميتها ناطحات السحاب ، دون أن يدركوا أن لفظ "النَطح" هو طفح لا شعورى من حيوانية الفكر. لقد صنعوا التكثيف وخططوا له ثم يتبرأون من مساوئه شاكين مما يسمونه الكثافة السكانية وكأنها سقطت من السماء فى ليلة ظلماء.

أنتم ابتدعتم التكثيف ، وقيدتم الانتشار وحبستم الأرض عن الناس ، فضاقت فى وجوهكم وعقولكم الأرض بما رحبت. ومشاكل الزحام والتلوث هى فى الأصل مشاكل تكثيف مصنوع بجهل ، فأين عمق التفكير وبعد النظر يا أولى الأبصار! فى آلاف المواقع البالغة الزحام تجد من يهدم منزلا مكونا من طابقين أو ثلاثة ليقيم مكانه برجا مكونا من عشرات الطوابق ومئات الشقق (العلب) ، ويتم ذلك لحساب بعض الديناصورات ووحوش الغابة فى وضح النهار وتحت سمع وبصر الجميع ومباركة المتواطئين المرتشين.

هل ضاقت الدنيا أو ضاق سطح الأرض - الممهد ذو النور والهواء الطبيعيين - لدرجة الاحتياج لصنع أنفاق فى باطن الأرض المظلم الكئيب الممرض والمكلف؟! إن الضيق والظلام لفى العقول التى ركنت للمألوف والتى تسلم بما يسمى تقدما وهو فى الحقيقة غير ذلك. إن مقارنة أوجه الإنفاق اليوم بأوجه الإنفاق فى القرن الماضى لتوضح مدى شرود العقل عن جادة الصواب ، ومعاداة الإنسان للطبيعة التى استُفزت فكشرت عن أنيابها كى يفيق الشارد ، فهل يفيق؟! قارن معدلات النقل والتنقلات اليومية ، وتأمل كم منها يمكن

توفيره أو حذفه من قاموس الحياة لأنه مصطنع ولا داعى له. تأمل ما تحتوية المعلبات من كيماويات مدمرة للصحة وللبيئة ، وما تحتويه مياه الصرف الصحى!! والصناعى من سموم فتاكة تهدد الحياة على سطح الأرض ، وما تنفثه محطات توليد الكهرباء من أدخنة وسموم لتنتج كميات مضاعفة من الكهرباء لزوم تشغيل مصاعد الأبراج ومضخات رفع المياه لخزاناتها العلوية ، وإضاءة العلب المظلمة نهارا وتشغيل سلالم الأنفاق وإضاءتها وتشغيل المراوح والمكيفات فى العلب المغلقة وتحويل ليل المواخير إلى نهار صارخ الألون ، وإضاءة عشرات الأفدنة للعب ليلا تحت الأضواء الكاشفة! تأمل ما تنفثه السيارات من سموم وهى تقف فى إشارات مرور الشوارع - الغبية التخطيط والتنظيم - تحرق الوقود وأعصاب الناس.

المطلوب عقول شجاعة قادرة على تحليل أسباب المشاكل وتتبع جذورها ، ولسوف يتأكد العاقل أن معظم المشاكل مصنوعة وليست طبيعية. إن معظم المشاكل التى تواجه إنسان اليوم والأعباء التى تثقل كاهله وتضيق صدره لم تكن موجودة بالأمس ، وسوء تصرف الإنسان هو السبب فى معظم المشاكل التى يعانى منها ، إنها مشاكل عقلية فى الأساس ، ولن تحل مشكلة بمشاكل جديدة ، ولكن حل المشكلة يكون ببحث الأسباب الاصلية لوجودها ، فكثير من مشاكل العصر إما مصنوعة أو مصطنعة. وكم من الحماقات والجرائم ترتكب باسم التصنيع وتحسين مستوى المعيشة وزيادة الدخل القومى ومواكبة العصر.

والأمثلة تفوق الحصر ، ولنـأخذ مثالا نشـر بجريـدة الأهـرام يـوم 22 - 5 - 1996 وننقل حرفيا ، "قالت لأستاذ طب الأطفـال وملاحظهـا توحـى باليـأس والقنوط: صف لى لبنا صناعيا أقدمه لابنى الرضيع ، فسألها: وهـل تشـكين مـن قلـة لـبن الثـدى؟! قـالت: أبـدا فهـو متوافـر ويزيـد ، ولكننـى بحكـم وظيفتـى مضطرة للعودة للعمل بعد 45 يوما من الولادة تاركة ابنى للحضانة ، بـل إنـى أذهب إلى عملى ويفاجئنى الألم الشديد فى ثديى لامتلائهما بـاللبن ، فأستأذن وأذهب إلى دورة المياه أفرغ لبنـى - منحـة الله لابنـى - فـى بالوعـة الحـوض وقلبى ينفطر حزنا وأنا أكاد أسمع رضيعى يبكى رافضا زجاجـة اللـبن الصنـاعى من يد تمرجية جاهلة تقوم بوظيفتها بلا قلب ولا حنان فهل يرضى هذا أحـدا؟! وهل تصور القائمون على الأمر أن أمـا بهـذا الحـال يمكنهـا أن تقـوم بعملهـا؟! وعلى أى وجه من الوجوه؟ وهل تعرف الدولة عملا أكثر قيمة ، بـل ومكسـبا للوطن من أم ترعى وليدهـا-فـى أشـد فـترات عمـره أهميـة وحرجـا؟! السـنتان الأوليان؟" انتهى.

نعم صحيح وطيب أن التطـورات الصناعيـة أعفـت الحيوانـات مـن التعليـق فـى الساقية وإدارة الطاحونة وجر المحراث والمركبة وحمل الأثقال ومـا شـابه ذلـك ، ولكن حدث ذلك ليتم تعليق الإنسان نفسه فيما يشبه الساقية وهذا هو السيء. تجد الإنسان قبل أن يفرغ من تلبية مطلب تنتـظره قائمة من المطالب ، وقبل أن يفرغ من مشكلة يدخل فى عـدة مشـاكل. دوامـة تقـوى وتتسـع ويغذيهـا مـا يسمى بالتطور العصرى ، إنه حقا تطور وعصرى ولكن ليس كله تقدما بل فيـه

الكثير من التخلف ولكن العقول المغيبة لا تدرك. لقد استراحت الحيوانات التى كانت مسخرة – ولا بأس – ولكن أُرهق الإنسان الذى كان سيدا ، وهذا هو عين البؤس العقلى.

التشكيل التبادلى

للإنسان عقل يحكم الجوارح وتغذيه الحواس بالمعلومات ، وما تشكله الجوارح بأمر العقل تلتقطه الحواس بعد ذلك لتعود به أو ببعضه للعقل مؤثرة فيه بوحيها ، وتستمر الحلقة تدعم نفسها وتحاصر العقل ، دون أن يميز السبب من النتيجة من الهدف ؛ لأن الحلقة مغلقة. فحين نبنى غرفة قائمة الزوايا نحاول بعد ذلك أن نشكل لها أثاثا ذا زوايا قائمة وتصبح المسارات داخل الغرفة أيضا قائمة الزوايا ، فتتشكل حركتنا وفقا لها. وشيئا فشيئا نألف الزوايا القائمة وتصبح هى الأساس فى تفكيرنا وما عداها يعد استثناء وشاذا ، رغم أن الزاوية القائمة لا فضل لها على بقية الزوايا أو المنحنيات الانسيابية. ولنتأمل إبداع العليم الخبير فلن نجد فيه زاوية واحدة قائمة ، فكل الجمال ينساب بنعومة.

وحسب شكل المقعد – الذى شكلناه – نختار الجلسة التى تتوافق مع شكل المقعد. وأحيانا وفى زحام استقبال الآشياء الكثيرة نضع شيئا ما فى مكان معين مؤقتا لحين تيسر الوقت الكافى لاختيار أنسب الأماكن له ، ولكن بمرور الوقت ونسيان إعادة الترتيب يكتسب ذلك الشيء اتساقا خادعا مع مكانه ، فتألف

عقولنا هذا الوضع ويستمر إلى حين .... وهكذا ، ما نشكله ينعكس شكله علينا أو على فكرنا ويحتل عقلنا فيشكل تصورنا دون أن ندرى ، بغض النظر عن كونه صوابا أو غير ذلك. وأيضا فى كل عصور الضلال ترى الشعوب تصنع الأصنام ثم تقدسها وتقدم لها القرابين بعد ذلك ، والأجيال التالية تتوارثها وتنميها وترتعد أمامها!

والتطورات الناتجة عن التقدم الآلى والمتمثلة فى اختصار الأبعاد ، وظهور العجائب (فى نظر البعض) ، وتسريع التاريخ بزيادة كثافة الأحداث ، والخروج من مجال الكرة الأرضية ، وانكماش الكوكب الأرضى فى نظر الناس .... إلخ ، كل ذلك وغيره يؤثر بشدة على التوازن النفسى والبيولوجى للإنسان المفتون ، وعلى عقله ، فيتصور البعض أنه كاد يسيطر على النواميس! وكل تصور من هذا القبيل هو خطوة كبيرة نحو "جنون الوسط".

ومما يدعو للأسى أن "الحرافيش" الاصطناعية قد شغلت العقول التى صنعتها ، و لم تعد هناك مساحة تتنفس فيها النعم والنسائم الطبيعية. ففى عقول الكثيرين من مهندسى العمارة تجد الخرسانة حاضرة فى التفكير وسابقة فى الحسبان قبل أى مادة بناء طبيعية ، يحسبون أن الخرسانة أرقى من الأحجار الطبيعية ، وأن البلاستيك (المصطنع) أرقى من الخشب الطبيعى! كما تجد مواضع وتجهيزات مكيفات الهواء طاغية على مجرد التفكير فى مزايا وإمكانات التكييف الطبيعى ، وكأن توزيع درجات الحرارة على مدار اليوم وفصول السنة جاء عبثا ويحتاج

إلى ضبط وتثبيت! إنهم يجهلون أن وراء هذه الفروق والتغيرات الحرارية من الحكم الحيوية ما يكفى لتنبيه عقول أولى الألباب لتخر ساجدة لحكمة العليم الخبير.

وتتورم الخيبة لدرجة التفكير فى إنشاء أقسام طبية تتخصص فى الأمراض التى استجدت بسبب مكيفات الهواء. وذلك أسوة بأمراض الحساسية الناتجة عن المواد التى أتعب الإنسان نفسه فى صنعها ، والسجاير التى أُنشئت المصانع وأُهدرت الأموال فى سبيل المزيد من أضرارها وأمراضها ثم تُبنى المستشفيات لمعالجة من يمرضونَ بسببها! حضارة وتحضر واقتصاديات لزوم المزاج المنحرف!

بهذه الأشياء التى شكلناها أو اصطنعناها تتولد فينا معان تلقائية ، فمن يقود الطائرة يشعر بالزهو وكأنه يطير بذاته ، ومن يقود السيارة المصفحة يكتسب شعورا زائفا بالقوة والأمان ، ومن يسكن فى أعلى البرج السكنى قد يتولد فيه الإحساس بالعُلو (التعالى) على من يسكنون المساكن المحدودة الارتفاع. وكذلك الألقاب التى اصطنعها عقل الإنسان مثل : عميد ، ولواء ، ورئيس ، ومدير ، ووزير..... جعلت نفوس الكثيرين من حملة هذه الألقاب تنتفخ ، وتراهم **يستكبرون بغير الحق** ، فى غفلة من العقل الذى تشكل فيه ذلك الزيف (الوهم) ، فغابت عنه الحقيقة ، أو غاب هو عنها. وكثيرا ما نسمع (ونرى) أن فلانا قد تغير بعد توليه المنصب ، وأصبح يقرب المنافقين والمداحين الذين ينفخون فى الهالة الزائفة من حوله ، فيكون بذلك قد ساهم فى صُنع

السجن الذى يُحبس فيه دون أن يدرى أن السجن والسجانين من صنعه هو ولا يستطيع الخروج مما صنع ، بل إن عقله لم يعد يستطيع تصور نفسه خارج الشرنقة.

عقليات

حينما يُعطل - أو يحجم أو يخدر - عقل الجماعة يسهل قيادتها والسيطرة عليها وتوجيهها الوجهة المخطط لها ، وفى مثل هذه الحالة تكون الحركة فى الظلام وإلى الهلاك ، أو إلى حيث يريد أصحاب المصلحة أو الأهواء ، تلك قاعدة معروفة وتطبق عند اللزوم. وحين يتعذر تعطيل العقول أو السيطرة عليها يكون البديل هو التشويش لتصعيب الرصد والإدراك ؛ فتصبح الغالبية فى حيرة من أمرها لا تتفق على رأى ولا تدرى إلى أين تتجه! فتسير وراء كل ناعق فى اتجاهات شتى ويسهل ضربها ببعضها حتى الإنهاك والخضوع فى ذل الضياع. وحين يشتد تعقيد الأمور يلجأ المفسدون وأعوانهم إلى افتعال مشاكل (أو صنع أعداء) والنفخ فيها ثم تقديم حلول ساذجة لتلك المشاكل ولا مانع من تقديم كباش الفداء ؛ لإشغال العقول عن المشاكل الأصلية. تلك أسوأ الحالات وهذا هو نهج الطغاة ، والنتيجة خراب عام ثم سقوط الطاغية ملطخا بأوحال الدنايا - وغارقا فى مصيره الأسود - حتما ولو تنوع السقوط لتتباين العبر.

ويقابل هذه الحالة (السيئة) ، نقيضها (الحالة المثلى) التى يتم فيها استثمار العقول وإنارتها بالفكر والمعنى ، وتأليفها والاستئناس برأيها لبلورة الأهداف السامية المشتركة وتحديد كيفية تحقيقها. مطلوب التجميع لا التفريق ، التعاون للخير لا التطاحن بالشر. إن خزائن فضل الله لن تنفد ، وحسابه مؤكد ورقابته بالغة الدقة ، و **لا تأخذه سنة ولا نوم**. إذن فى كل موقع يلزم – دائما وبشدة – وجود قائد راجح العقل ، يوقن بمحدودية عقله وذاته ، وأن فضل الله ليس حكرا على مخلوق واحد. القائد العاقل يقبل نصح العقلاء ، أمين لا يضيع الأمانة ، ولا يتبع الهوى ولا يتجاوز الحدود ، ولا يضع هو الحدود ، ولا يضخم ذاته ، ولا يسمح للمضللين بذلك. وبرجاحة العقل يمكن طلب رضا الله ، ثم مخاطبة العقول وتأليفها وتجميع القلوب حول الأهداف السامية ، ثم التوكل على الله فى تنفيذها. عندئذ يكون المنشود هو الإحسان – وهو مادى ومعنوى – ولا يتيسر إلا لأهل الإيمان ولا يكون إلا فى الخير. أما أهل الكفر فقد يمكنهم الله من الإتقان وهو مادى فقط وقد يكون خيرا ، كصنع الدواء ، أو يكون شرا كإنتاج السموم وأسلحة التدمير والخراب.

لا خلاف – عند العقلاء – حول حقيقة أن الإنسان جسد وروح ، الجسد منقاد والروح هى القائد. بالنسبة للجسد فهو مادة سفلية ملموسة ومحددة ، تُرى وتُحس وتُوزن وتُكسر وتنضغط وتنتفخ وتُدرك وتزيد وتنقص وتحيا وتموت ، وعديدة الاحتياجات ، تجوع وتشبع وتعطش وترتوى ....إلخ. ولذلك فالتعامل معها ميسر. أما الروح فقد استأثر بعلمها الخلاق العليم – جل

شأنه – وحسم أمرها حسما قاطعا مانعا ﴿ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِى ﴾ – الآية 85 – سورة الإسراء. بالنسبة للمؤمن فقد وفر على نفسه جهد ووقت الجرى وراء السراب ؛ ليستثمر جهده فيما يفيد ويبقى. أما غير المؤمن فلا يزال يُراقب وزن الجسم لحظة الموت ليحدد وزن الروح التى تغادر الجسم!! وبعضهم يحفظ الجثث مجمدة على أمل إعادة الروح إليها بعد تقدم العلوم الطبية مستقبلا!! والبعض الآخر يضع أجهزة تنصت فى القبر لاستكشاف عالمه!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومع كل التقدير للعلوم المادية ومنافعها التى تعود على الإنسان ، فمن المؤكد أن هذه العلوم لا تكفى وحدها لهداية البشر وصلاح أحوالهم ؛ لأن هذه العلوم – المادية – تتعامل مع الشق المنقاد (الجسد) وتصلح بلا منافس لتسمين الدواجن وهذا الأمر مطلوب وله مجاله ولا غبار على أهدافه – لكن بضوابط. أما علوم الهداية فتتعامل مع الشق القائد وهو العقل. وقد جاءت كل الرسالات السماوية لتتعامل مع الشق القائد ، أما الشق المنقاد فما أيسره إن صلح القائد ؛ لذلك لم نجد نبيا ولا رسولا خصص وقتا لشرح مسألة كيميائية أو هندسية أو رياضية إلا لضرب الأمثال التى يسهل استيعابها ، وذلك لا يمنع أن نجد ضمن خطابات الهداية إشعاعات ومضات ضمنية تلاطف وتحتضن طفولة العلوم المادية من علٍ. فنجد أدق التعبيرات العلمية عن الرياح والجبال والشمس والقمر والنجوم فى سياق أنها تسبح وتسجد (بسعادة غامرة) لرب العالمين – عز وجل. فالنصوص المقدسة (غير المحرفة) تعالج المعانى وتشير إلى الحكم.

كل خطابات الهداية – بلا استثناء – تبرز المعاني و تمجد الحكيم ، وهي آيات للتفكر والتدبر والتذكرة ، آيات تخاطب العقل والعقل فقط ، فليس هناك خطاب موجه إلى لجسد ولا الأعصاب ولا العواطف ولا الأنعام ، إنما هو إشفاق على كل هؤلاء ورحمة بهم ووصايا للعقل ليرفق بهم ، بما مكنه الخالق من سيطرة راجحة عليهم وهم أمانة لديه ويتحملون نتيجة أخطائه وغروره وحماقاته. وجدير بالذكر أنه توجد خطابات أخرى للجبال والرياح والطيور والأنعام بلغات لا نعرفها ، لكن التوافق القائم بين مفردات الكون يؤكد وجود تحكم وتفاهم من نوع ما بلغة أو بأخرى ، وإلا لتبعثر الكون بعبثية الفوضى.

والخطأ يمكن التماس العذر لصاحبه إذا لم يكن عن عمد ، أما إن كان نتيجة ضلال أو جهل فيمكن تحليل أسبابه ولا نستطيع الدفاع عنه أو تبريره. والخوف هنا يكون من الجهل ، أو من الضلال لأنه يؤدي إلى الهلاك والعياذ با لله ، ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً** ﴾ 103، 104 سورة الكهف. وقد أخبرنا الخلاق العليم أن الإنسان صاحب الهوى يمكن أن يضل رغم علمه ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾ الآية 23 – سورة الجاثية. فالعلوم المادية وحدها لا تكفي لحسن خلافة الإنسان –عن الله – في الأرض ، وأحوال البشر مع نهاية القرن العشرين خير شاهد على ذلك ، حتى لمن لا يؤمن برسالات الهدى والسلام.

وبركون الإنسان إلى الأرض واتباع الشهوات قلت استفادته من رسالات السماء ، بل ضيع بعضها وحرف البعض الآخر ، ولم يسلم منها إلا القدر الذى تكفل الرحمن بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ - الآيه 9 - سورة الحجر. ولم يسلم صاحب الرسالة الخاتمة - صلى الله عليه وسلم - من الافتراء عليه ومحاولات التشكيك فيما جاء به ، بل لم يُستثن العزيز الجبار - جل شأنه - من الافتراءات والإنكار ومحاولات التشويه افتراء عليه أيضا ، وما أكثر من ابتلعوا تلك الافتراءات فى صغرهم فترسخت فيهم وشبوا وشابوا عليها ، ومنهم من يرتزق بها وينميها لحساب أسياده الأبالسة - ولا حول ولا قوة إلا بالله.

حملا ت التضليل

إن الأكدار التى تعيشها البشرية فى هذا العصر لدليل متكرر على أن البشرية تتحرك فكريا (وعقليا) للوراء ، نحو البهيمية التى لا يصلح الإنسان لها. هذا رغم تعدد وتضخم النشاط البشرى فى المجال المادى. فمعدلات القتل والإبادة والتصفية الجسدية والتشريد والانتحار الإيجابى والسلبى كلها تتفاقم بفعل فاعل ، ومستويات الشقاء النفسى ونسب الأمراض النفسية تتصاعد بغموض ، والأمر يحتاج إلى تحليل واستظهار مواطن الخلل. ومن لم يهتم بأمر البشر فليس منهم.

ونتيجة النشاط المبادى المتسارع فى هذا العصر وكثرة تنوع احتياجات الإنسان اللازمة لملاحقة هذا النشاط ، وتيسر الاتصالات واختزال المسافات ، وسرعة ردود الأفعال ، كل ذلك يحرك الأحداث بمعدلات يصعب ملاحقتها ، ولا وقت لتأملها.

والرسائل الثقافية والإعلامية الموجهة والمعلومات المسممة والأخبارالمصنعة تتدفق ليل نهار وتتزاحم على حواس الإنسان المحدودة ، لذلك يجد الإنسان نفسه غارقا فى المُحيرات بينما مغريات الترفيه (المغشوش) تناديه بإلحاح عبر نفس الوسائل ، وتكون النتيجة التلقائية أن أغلب الناس يستسهلون ما يتيسر من ثقافات دون بذل الجهد فى التدقيق والتحليل والتمحيص ، ويستسلم العقل للكسل الذى يشبه اليأس.

لقد بدأت حملات التضليل والسيطرة ببلبلة العقول ، ثم احتلتها فغيبتها وعبثت بذاكرتها وأصبحت الآن تتحكم فيها وتشكلها كيف تشاء على البارد وعلى الساخن ، بالشد والضغط واللى والقص ، عن بعد وعن قرب ، و"بالعصى والجزرة". لقد أصبحت المخططات الفكرية تنفذ بمعدلات قياسية لم تكن معهودة من قبل ، لدرجة أنها تدهش المخططين أنفسهم. ولو كانت تلك المخططات نظيفة لوجب التقدير والشكر لأصحابها ، ولكنها للأسف غير ذلك.

فمن يوقظ العقول من غفلتها؟

التقليد والاقتداء

التقليد هو محاكاة الغير ، ولا بأس به لدى العجماوات والأطفال ، بل قد يكون مطلوبا فى كثير من الحالات. أما عند البالغين من البشر فيجب أن يكون التقليد محدودا وبحذر ؛ فما أخطر التقليد الأعمى. والتقليد غير الاقتداء ، فالتقليد فى الغالب يكون محاكاة عمياء لصور جاهزة سابقة ، كالطفل يقلد أباه ، والبالغ يقلد أو يخضع لعادات المجتمع ، والقرد يقلد صاحبه صوابا أو خطأ ، ولا يشترط الاقتناع وقد لا يَرد من أساسه ؛ لأن العقل فى هذه الحالة لم يتهيأ لتأدية دوره فى التقويم والانتقاء. ولذلك لا يمكن أن يؤدى التقليد إلى إبداع من جانب المقلِد. والتقليد من السلبيات الشائعة بين العوام ؛ بسبب تكاسل العقول وقلة الوعى وضعف العزائم ، لذلك فالعوام فرصة سانحة لكل ما هب ودب وذاع وانتشر. والمقلِد إن تم تنبيهه واستجاب فقد يتحول إلى منتق ، يعرف ماذا يقلد وماذا ينبذ؟ ولكن من ينبه ومن يستجيب!

البعض يحسب أن التقليد يعفى من المغامرة ؛ لأن المقلِد يكرر تجربة بدت مألوفة ولا بأس بنتائجها ، وإن صح ذلك فى بعض الحالات فهى ليست قاعدة ؛ لأن نجاح المقلِد غير مضمون ، بل قد يكون التقليد سببا فى إهدار فرص وجمود الفكر وعرقلة التقدم ، ولكنه الركون للكسل الفكرى. وتوجد قيم وتقاليد اجتماعية صارت أشبه بالغرائز ونتحمل المشاق لتلبيتها ، لا لحاجة بيولوجية بل

لحاجة اجتماعية ، أى لكى ننال إعجاب المجتمع المحيط بنا! ونرضى غرور النفس!

أما فى حالة الاقتداء فيكون للعقل دور أكبر منه فى حالة التقليد ، وقد يتفوق الشخص المقتدى على قدوته فى حالة نشاط عقله. والقدوة يكون أكثر استعدادا للعطاء من المقلَد ؛ لأن القدوة يكون حريصا على مداومة إقناع المقتدِى والأخذ بيده. والاقتداء الواعى صفة القلة من البشر.

الحق والباطل

شاءت إرادة أحكم الحاكمين أن يستمر صراع الحق والباطل إلى يوم الدين ، وتتواصل الابتلاءات ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، وأتباع الحق من أتباع الباطل ؛ ولينال كل صنف جزاءه عن جدارة واستحقاق. وقد جرت العادة على ذكر الحق مفردا وينسحب مفهومه على الجمع وكذلك الباطل والأباطيل. لقد أوضح الحق المبين - جل وعز - أن الابتلاء أمر مقدر على الإنسان: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ الآية 2 - سورة الإنسان. وأوضحت الآية الكريمة أهمية السمع والبصر فى حياة الإنسان ، إنهما المدخلان الرئيسيان للعقل الذى هو وسيلة تمييز الحق من الباطل والطيب من الخبيث.

والعقول تتعامل مع الحقائق وأيضا مع الأباطيل ، باعتبار أن كلا منها معلومات أو تراكيب من المعلومات المتداخلة وتحتاج إلى تمييز وتدقيق. وحين تكون الأمور أكبر من طاقة العقل وإدراكه فيلزم الاستعانة بمصدر منير يوفر المعلومة الصحيحة عن القضايا التى يستحيل على العقل إدراكها بجهده وحده. ويكون دور العقل فى هذه الحالة هو التأكد من ثقة وصدق المصدر ، بلا عواطف حتى ولوكان المصدر هو أقرب الناس – كالآباء مثلا ؛ فليس من المؤكد أن كل ما عرفته من أبى – رحمة الله عليه – هو الحق أو الصحيح برغم عظم التقدير ودفء العواطف.

والدعوة هنا للتدقيق وليست للتشكيك ، وجدير بالذكر أن المعلومة الموثقة غالبا ما تكون أقرب للتصديق من المعلومة المأخوذة من ثِقة ؛ لأن الفرد الثقة عرضة للخطأ وتأثير العواطف. وبخصوص التوثيق نشير إلى وجوب الحذر من حيل التزييف والتزيين والفبركة التى تتبعها جهات ومنظمات ومؤسسات وشبكات مغرضة وتُسخر وسائل متقدمه وما أكثرها ، وينطلى ذلك على الكثيرين. لذلك يلزم التحرى ، ففى الأمور الملموسة نطلب البرهان وفى الأمور الغيبية نطلب الدليل على صدق المصدر قبل الأخذ منه. وما أرسل الله من رسول – يخبر عن الغيب – إلا وأيده بمعجزات تؤكد صدقه ، وما ختمت الرسالات السماوية إلا بمعجزة باقية ومحفوظة إلى الأبد كشاهد صدق ، ودليل إدانة أو استحقاق.

فقد كان لجميع الرسل معجزات خارقة تؤكد وثوق علاقتهم بالعلى القدير – جل شأنه. بعد ذلك جعلهم – صلوات الله عليهم أجمعين – أصحاب منهج وقدوة مُثلى فى تطبيق المنهج الأسمى فى كيفية التعامل مع الحقائق وتعرية الأباطيل وإطلاق النور الذى يهدى إلى سُبل السلام.

وحين يراد الوصول للحقيقة فى قضية ما – لا تتوفر فيها معلومات موثقة كافية – نلجأ لأوثق الشهود ، وقد يلزم تحليفهم ويشترط فيهم التجرد من العواطف والمؤثرات بقدر الإمكان ، فلا تصح شهادة الأب لابنه أو شهادة الولد لأبيه ؛ خشية التحيز ، كما رفض القاضى العادل شهادة الإمام الحسين – سبط النور وسيد شباب أهل الجنة – لأبيه أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب – كرم الله وجهه. وليس من الحكمة سرعة قبول المعلومة أو الخبر من صاحب مصلحة أو منفعة فى شيوع هذا الخبر ؛ بسبب اهتزاز شرط الحياد فى هذه الحالة. وأيضا يلزم التفكر فى سبب إلحاح فلان فى ترديد وإشاعة خبر لا يبدو له فيه مصلحة!

إن للعقل حيزا محدودا ، ومن المفترض أن من وظائفه فرز الحقائق للتشبث بها ، وتمييز الأكاذيب لطردها – وهذا أصعب الصعب – وإفساح المجال للحقائق لتستقر بلطف فتضفى السكينة والطمأنينة على القلب والجوارح وتنير البصيرة. وحيز العقل إن لم يُشغل بالحقائق فسوف يتسع للأكاذيب والأباطيل ، وأيضا العقل الذى تشبع بالأكاذيب يتعذر عليه استقبال الحقائق. واستقبال الحقائق

الكبرى يستلزم عقولا واسعة تهيأت وبذلت جهدا فى التوسعة والاستعداد. ولكن العقول البسيطة والعاطلة والعزائم المتواضعة تخضع بعد حين تحت ضغط الإلحاح المتواصل للأكاذيب الجاهزة والمزينة والمنمقة. وبعد مدة طالت أو قصرت يُرى الباطل قد لبس ثياب الحق ، وادعى الأصالة وتخير الألفاظ والعبارات الخادعة التى تليق بإتقان الدور ، وأعد المساندين والمؤيدين وشهود الزور.

الباطل لا يقوم بذاته ، ولا يمكن أن يقوم به شخص بمفرده. لا بد أن تكون هناك مجموعة من الناس (عُصبة) ، وأحيانا أجهزة ، تتعاون على الإثم والعدوان ، ومناخ يساعد على ذلك فيتولد الفساد وينمو فى حماية قوى الشر وفى منابت السوء. وحين يفسد المجتمع وتختل المعايير وتتعكر الأجواء يرى الإنسان العجب العجاب ، يرى الطاغى وقد تجبر وانتفخ وتجاوز كل الحدود المعقوله ، ورغم ذلك لا تقر له عين ولا يهدأ له بال ولا يطمئن لأحد ، وتجد حوله نماذج غريبة من البشر. فترى شلل المنتفعين والمشاركين فى المظالم والأكالين على كل الموائد يؤيدون ويساندون ويدافعون ، كلهم يتصارعون فى الخفاء ويدبرون المؤامرات – فى الظلام – بعضهم ضد بعض ، كل واحد منهم يعمل لحساب نفسه على حساب الآخرين ، ويتنافسون فى التقرب ونيل رضا ولى نعمتهم! وترى المتنافسين فى المدح والثناء وتراتيل النفاق على كل لون ولكل منهم حاجات فى نفسه.

والمدقق فى الصورة – على طول التاريخ – يستشعر من كان يعمل فى الظاهر لصالح الطاغية ويعمل فى الخفاء لتوريط الطاغية وتعريته عند اللزوم. ويكثر اللغط وتروج الشائعات وتتعدد الضحايا وتسفك الدماء وتختلط الأمور ، رغم تعدد الجواسيس ؛ لأن الجاسوس بجوار تأديته للمهام المطلوبة منه يفكر أيضا فى مصلحة نفسه وتأمين مستقبله هو ، وكيف يحمى نفسه من شرور وغدر الطاغية ، ولا نامت أعين الجبناء. وفى الظلال ترى الخدم السلبيين يتحركون كالدمى حسب الأوامر ، وفى المقابل يُلقى لهم ما تبقى من الفتات وهم أكسل الفئات عقولا ، وخلف الظلال ترى المظلومين والمقهورين والمستضعفين. وقل أن تجد من يعتبر!

احتراف النفاق

النفاق فى حقيقته طاعون عقلى ملعون ، وهو موجود على طول التاريخ فى حالة مد وجزر ، ولكن العجيب هو أمر الناس فى هذا العصر. لقد كان المنافق فى الماضى حريصا على التخفى لأنه أول من يعرف مدى حقارة ما يفعل. أما اليوم فقد صار النفاق حرفة وتصلد وجه المنافق وانعدم حياؤه وتوهجت صفاقته لدرجة أنه أصبح لامعا بهذه الصفة ، بل وأصبح من المقربين ويحرص الطغاة على ترتيب أمورهما معا ، فهم شركاء فى البضاعة. ولقد

ساعدت وسائل الإعلام الحديثة على شيوع النفاق. والعيب ليس فى الوسائل ذاتها ولكن فيمن سخروها لخدمة الفساد ونشر الأكاذيب وتصفية الحسابات.

وأصل كلمة النفاق مرتبط بالنفق ، والأنفاق وهى مساحات تحت الأرض يسودها الظلام فى أغلب الأحوال ولها أكثر من مخرج يوصل إلى سطح الأرض حيث النور والوضوح. ففى الظلام تُبيت النوايا ويجهز لها الأقنعة المناسبة لتأدية الأدوار المطلوبة ضمن مخططات الفساد والضرار. وفى العصر الحديث توفر للنفاق أكثر من غلاف ناعم أملس مثل السياسة والدبلوماسية والمرونة وتسليك الأمور وتمرير المصالح ، وبهذه الأغلفة الملساء يتم زرع وتنمية النفاق فى عقول الأبرياء. لا تجد شخصا يولد منافقا ، بل يولد على الفطرة السليمة السوية ، ولكن مايراه من سلوكيات من يعتبرهم كبارا أو قدوة ، وما يمر به من تجارب ظالمة يتعرض فيها لظلم أو إكراه أو حرمان أو تمييز وما شابه ذلك ، كل ذلك يجعله يحسب أن فى النفاق مخرجا من الأزمات ومدخلا للمنافع ، وقل من يدرك – بيقين – أنه باب المهالك. فالمنافق لا يثبت على مبدأ بل يدور حيثما رأى مصلحته العاجلة.

وفى التعامل مع الناس من مختلف الأعمار يُلاحظ التناسب الطردى بين سن الإنسان وقدرته على النفاق ، مما يدل على أن هذا الداء اللعين يستفحل ويتطور مع الوقت حتى يتمكن من العقل ، وهذا يعنى تلاشى القابلية للشفاء ، وتلك كارثة الضياع الأبدى. فالمنافق أول ما يضر يضر نفسه ؛ لأن فى داخله أكثر

من شخصية تتصارع وتتنازع الأدوار ، فكيف يستقيم العقل أو تطمئن النفس لتسكن الجوارح!

تجد الإنسان ما دام بعيدا يتكلم - ربما باقتناع - عن المثاليات ، وعندما ينزل إلى خضم الواقع بمغرياته ومحظوراته يضعف (نفسيا) ويظل يتنازل عن مثالياته حتى يصبح حاله نقيضا للمُثل التى كان يتحدث عنها حين كان "على البَر". ويندر أن تجد صاحب العزيمة الذى يتمسك بالقيم والمبادىء التى ينادى بها ؛ لأن ذلك يتوقف على درجة إيمانه بما كان يقول. أما من يغرق فى التنازلات فقد كان إيمانه ناقصاً بما تلقنه. فتَبدُّل مبادىء الشخص الواحد بتغير مواقعه دليل على عدم رسوخ إيمانه بتلك المبادىء. وجدير بالذكر أن الإيمان لا يتساوى بكل المبادئ عند الشخص الواحد ، فيمكن أن يكون الشخص راسخ الإيمان بمبدأ ومهزوز الإيمان بمبدأ آخر.

وإذا كانت أسباب النفاق معروفة عند الضعفاء وأصحاب الحاجات من البسطاء ، فكيف تقبل ممن يدّعون حمل أمانة الفكر والكلمة والقلم! عجيب أن ترى الكاتب قد شاب وشاخ وما زال يلف ويدور وينفخ فى أنصاف الحقائق مقلصا الأنصاف المقابلة ، فتظهر الأمور فى شكل محرف ومشوه ويتكرر عرضها بتلك الصورة حتى يحسب غير المدقق - وما أكثر هذا الصنف - أن الأمور هكذا فيقبلها وشيئا فشيئا يصير عقله مشوها ، أو قل مشوش الفكر أو فى حيرة من أمره.

ولقد ترسخ النفاق فى النفوس وتطور لدرجة أنه شكل فيها فواصل جامدة فأصبح الإنسان بأكثر من شخصية وفى داخله تناقضات تقتسم النفس لحساب مراكز القوى الفكرية والمصالح الدنيوية. وترى الشخص فى بيته وماله يتصرف بدقة وحرص وحساب ونظام ونظافة .... إلخ ، وفى المال العام والأماكن العامة يتصرف عكس ذلك تماما دون أن ينكر الانقلاب الذى يحدث فى تصرفاته بين ساعة وأخرى!

الإتقان والإحسان

الإتقان فى الغالب يتعلق بالجانب المادى للشىء ، ويقع فى محيط التعامل بين الناس بعضهم البعض ، ويلزمه التفتيش والمراقبة البشرية ، وهو مُكلِف. ومن أمثلة الإتقان : دقة الصنعة والحيلة والحرفة ، ودقة البناء وجمال الكتابة ، وأحيانا خطط الغدر وإحكام التزييف. والإتقان المادى الذى تحقق فى عصر التكنولوجيا الحديثة أصاب الإنسان بالغرور ، فأعمته نشوة الزهو فبالغ فى تصوره لقدرته ونسى حقيقته ، فكفر بالروحانيات وبغى على القيم ، فأصبح كالعملاق المصاب بالشلل النصفى ، يكاد يهذى بسبب مقدرته فى الجانب (المادى) وعجزه الشديد فى الجانب الآخر (الروحى). فبرغم شيوع قيم الرفاهية وأساليب المجتمع الاستهلاكى ، فلم تحقق الحداثة الغربية سعادة البشر ، وما زالوا فى الغرب يتساءلون: ما معنى الحياة؟؟؟ سؤال يتحدى غرور جميع المناهج الوضعية والحضارة الاصطناعية.

يوجد خطوات محددة توصل إلى تحقيق الإتقان فى كل صنعة ، ويزيد الإتقان بالتدريب والخبرة ، وقد يصل الإتقان إلى حد المبالغة والمغالاة ؛ للفخر وإبراز مدى التمكن ، وبعد ذلك فلا مانع من الغش. وهذا فى حد ذاته (الإتقان) يمكن أن يحوز الإعجاب ويستحق الثناء والتقدير ، ويكون الجزاء - على ذلك - من صنف العمل ، مقابل مادى - آجلا أو عاجلا - والأجر مرهون باكتمال ونجاح العمل ، ولذلك يمكن أن تكون عمليات الإتقان مصحوبة بقلق وأحيانا عصبية ؛ لأنه قد يكون للنفس وللأهواء فيه نصيب كبير. ولا يرضى الصانع بأن تكون المحصلة فى النهاية مجرد عائد معنوى أو يكون العمل بدون مقابل. وهذا الإتقان يراعى الحسابات الاقتصادية والتجارية بحرص وبما يتيسر من دقة ؛ لتحقيق أقصى ربح ، وإن حدثت تضحية فتكون على أمل التعويض مستقبلا ، ولا غبار على ذلك بالمقاييس المألوفة بين الناس.

الإتقان قد يتواجد فى الخير أو فى الشر ، فتجد غشا متقنا وتجد تنظيفا مبهرا ، والإتقان محصور بين الناس بعضهم وبعض. أما الإحسان فلا تجده إلا فى إطار الخير ، فيتعدى الإتقان إلى الإبداع وتجلية المعانى السامية ، ومجال الإحسان يقع أساسا بين الناس وبين رب العالمين - ونعم البينية - ولذلك فالإحسان لا يمكن أن ينشأ إلا فى إطار الإيمان ، ولا يلزمه مراقبة بشرية ، فالغش غير وارد ، والإحسان أقل تكلفة وأعظم أجرا ، ولا يشترط فى الأجر اكتمال أو نجاح العمل ، ولذلك تجرى عمليات الإحسان بموضوعية ونفس مطمئنة وأعصاب هادئة. الإحسان كله خير ويتضمن خير الإتقان - باعتدال - لتحقيق أهداف

ليست كلها مادية ؛ فالفاعل يرضيه أن يكون الأجر حسنة واحده ترفعه عند الله درجة أو تقربه من ساحة الرضوان خطوة ، وإن تيسر مقابل مادى فلا بأس. وأمثلة الإحسان أكثر عددا وأرحب أفقا وأجدى نفعا من أمثلة الإتقان. فعلى سبيل المثال ، رفع معدلات الأداء فى مدارس ومصانع المؤمنين إحسان ، ورصف الطرق لتيسير حركة الناس إحسان ، وانتخاب الأصناف الزراعية الممتازة لزيادة الخيرات إحسان ، وتوفير فرص عمل للمحتاجين إحسان .... وهكذا ، يلزم وجود هدف نبيل كشرط لتحقق معنى الإحسان.

العقل والمجتمع

حركة المجتمع هى مجموع (محصلة) نشاطات أفراده ، للأمام أو للخلف ، لأعلى أو لأسفل. والإنسان المتواضع العقل والعزيمة يحاول - بتلقائية واستسلام - أن يتشكل بشكل المجتمع الذى يعيش فيه. وهذا النوع من السلوك الحرباوى - نسبة إلى الحرباء - لا يُنتظر منه تطوير أو نهوض ، بل هو أقرب إلى الهبوط ، وبمثل هذا السلوك ترسخت العادات والتقاليد. ومثل هذا الصنف من الناس ينتظر تغير المجتمع ثم يغير سلوكه بعد ذلك ؛ ليتأقلم مع الواقع الجديد. والخطورة فى ذلك أن هذا الصنف من الناس يمثل الغالبية العظمى من المجتمع ، يُحسن إن أحسن الناس ، ويسئ إن أساءوا ، وهذا هو نموذج الإمعة.

العقل المريض يسبب العدوى لمن حوله ، والمجتمع المريض يُمرض عقول أبنائه ، فى تبادل تلقائى استطراقى وطبيعى عند الدهماء. ما أسرع انتقال العدوى وما أطول مراحل الشعور بأعراض الداء وتشخيصه والسيطرة على أسبابه ، والبحث عن الدواء ثم الصبر عليه أملا فى الشفاء. إنها سلسلة طويلة إن صدق العزم ، ومستحيلة النجاح إن غرقت فى الكذب وألاعيب السياسة. والمجتمع المريض لا يمكن أن ينهض قبل تشخيص الداء والالتزام بأصول العلاج. وأغلب أمراض المجتمع - إن لم تكن كلها - هى فى الأساس صناعة بشرية فاسدة بسبب البضائع المسمومة والأساليب المغلوطة.

وأغلب الأخطاء ترجع إلى مفاهيم خاطئة غُرست فينا بقصد أو بدون قصد. فحسب النشأة التقليدية تجد العواطف غالبة على العقول ، وتجد الذاتية غالبة على الموضوعية ؛ بسبب تورم الذات (الأنا) وتهميش حقيقة الموضوع. هكذا تربى الكثيرون ، وما أكثر الأمثلة الدالة على ذلك فى الدول والمؤسسات المتخلفة ، فترى الخلط السائد بين شخصية الحاكم والدولة ، فالنقد العام يحتسب كأنه نقد لذات الحاكم! ومناقشة سلبيات المؤسسة يحتسب كأنه هجوم موجه لشخص سعادة المدير!

وفى الماضى كانت مهمة العلماء والدعاة هى قيادة فكر المجتمع نحو الأفضل ، أما اليوم فقد ضاقت فرصة أهل الفكر النزيه فى توجيه المجتمع ، وأصبحت الأجهزة القاسية هى صاحبة الصوت العالى ، والإمكانات العضلية المتوحشة هى

المسيطرة على جسد المجتمع وتفترس عقله. وهذا لا ينفى ولا يلغى دور العلماء لكن فقط صَعّب مهمتهم ما داموا لم يُمكنوا من وسائل السيطرة والتأثير التى تحتكرها السلطة ، أو على الأقل من أن يُسمع رأيهم. وواجب على أولى الأمر أن يسمعوا للعلماء ؛ لأن الأجهزة الحاكمة – فى العادة – تتعامل بصرامة وشدة للضرب على يد الخارجين على النظام والمناوئين له ؛ خشية أن تفلت الأمور من أيديهم ، ولذلك يلاحظ فيهم العصبية الزائدة وقصر النظر والمبالغة وسرعة نفاد الصبر فى تصرفات أغلبهم. وفى العادة فإن توفر السلطة يغرى باستخدامها ، ويكون كل ذلك على حساب التقييم العقلى للأمور.

أما العلماء وأصحاب الفكر الراقى فهم أهدأ أعصابا وأكثر حيادا وأبعد نظرا وأعمق تفكيرا ، ولذلك تجدهم أقل ذاتية وأكثر موضوعية من غيرهم ، ولديهم الفرصة الأفضل للتفكير والتحليل واستنتاج الحل الأفضل ، وهم ليسوا طرفا فى الصراعات المادية ، ولا أصحاب مصلحة ولذلك فهم أقرب إلى الحكمة ، ومن مصلحة الحاكم الواعى ومصلحة المجتمع أن يسمع لرأيهم ؛ فهذا هو أهم أدوارهم ، نحو مجتمعاتهم ، وسيسألون عنه أمام ربهم.